مدى مسؤولية الانكشارية في تدهور الدولة العثمانية

الدكتور علاء موسى كاظم نورس
قسم التاريخ/كلية الآداب
جامعة بغداد

يلاحظ عند دراسة التاريخ العثماني أن الجيش الانكشارى يعد من أشهر ما تميزت به الدولة العثمانية عسكريا ، اذ كان سلاحا للدفاع والتوسع في مراحله الاولى .

ويقوم هذا الجيش على أساس تجنيد أبناء رعايا السلطان من المسيحيين، الذين مكنت الغزوات الاولى للعثمانيين في أوربا من الحصول على عدد كبير منهم[1] . ويذكر المؤرخون ان السلطان أورخان (١٣٢٦-١٣٥٩م) - الذي يعتبر صاحب فكرة تأسيسه - قد جند في بادىء الامر الفا من هؤلاء تجنيدا دائما ، ووضع قانونا خاصا بهم صيغ في أربع عشرة مادة ، تضمنت النظام الداخلي للجيش الانكشاري ، وتنظيم علاقات أفراده بعضهم ببعض . كما نصت على الطاعة المطلقة والانقياد التام لاولى الامر[2] .

---

(١) Charls Eliot, Turkey in Europe, (London, 1908), P. 59; H. Gibband H. Bowen, Islamic Society and the west, Vol. I, Pt. I, (London, 1950), P. 43, 58.

(٢) احمد جواد ، تاريخ عسكري عثماني ، (استانبول، ١٢٩٩)، ص٦١، احمد راسم ، عثمانلي تاريخي ، جـ١ ، (استانبول ، ١٣٣٠) ، ص ٥١ ،
Ismail Hakki Uzunçarsili, Osmanli, Devleti Teskilâtinlan Kapukulu Ocaklari, I, (Ankara, 1943), P. 240. Ahamd Bedvi Kuran, Osmanli Impartorlugunda Inkilap Harekatleri Ve Milli Mucadele, (Istanbul), PP. 26 — 7.
وانظر : كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة نبيه فارس ومنير بعلبكي ، الطبعة السادسة ، (بيروت ، ١٩٧٤) ، ص ٤١٤ .

ويبدو ان السلاطين قد وجدوا في هذا النظام ميزة كبرى ، فالشبان الذين يجندون كانوا يفقدون ـ بمقتضى تربيتهم واعتناقهم الاسلام ـ روابطهم الاصلية . كما لم يكن بوسعهم اكتساب روابط جديدة ، لانه لم يكن يؤذن لهم بالزواج ما داموا جنودا ، وبذلك تنمو فيهم روح الجماعة المهنية مع ولائهم لعرش السلطان[٣] . في حين ان القوات المعروفة باسم « اليايا » أو « البيادة » ـ أي المشاة ـ والتي تمت على يدها الفتوحات الاولى للعثمانيين ، كانت صعبة الانقياد ، بحكم كونها غير نظامية ومقصورة على الاناضول ، كما لم يكن بالامكان الركون اليها في عمليات بعيدة عن مواضع اماكنها دون التعرض لبعض المشاق[٤] ، لهذا كان من الطبيعي ـ كما يقول المستشرق كب ـ أن يفكر السلاطين العثمانيون في ابدالهم بفرق أخرى . وهذا ما سمحت الظروف بتحقيقه ، حين تمكن العثمانيون من الحصول على عدد كبير من الاسرى خلال عمليات توسعهم في أوربا[٥] . ولما كانت رغبة السلاطين في ذلك الوقت اختيار أقوياء البنية منهم كأجناد لتأليف القوات الجديدة « الينى جرى »[٦] ، لذا تعين على هؤلاء الدخول في الدين الاسلامي ، اذ لم يكن الا للمسلمين الحق في حمل السلاح[٧] .

---

(٣) اسماعيل سرهنك ، حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج١ ، (القاهرة ، ١٣١٢) ، ص ٤٨٨ ،

Edward Creasy, History of the Ottoman Turks, (London, 1878), P. 14, Eliot, Op. Cit., PP. 59 — 60.

(٤) Gibb & Bowen, Op Cit., Vol I, Pt. I, 58.

وانظر : محمد انيس ، الدولة العثمانية والشرق العربي ، (القاهرة) ، ص ٧٥

(٥) Ibid.

(٦) الينى جرى هو الاسم الذي صار فيما بعد علما على الجيش ثم حرف في اللغة العربية فأصبح « الانكشاري » ويكاد يكون القصد من التحريف التعريب .

(٧) بروكلمان ، المصدر السابق ، ص ٤١٤ ،

Theophile Lavallee, Historie de L'Empire Ottoman, (Paris, 1855), P. 131.

وكانت هذه النخبة تخضع لتدريب خاص في المدارس العسكرية ومدارس القصور السلطانية ، ويتخرجون منها ، حسب مؤهلاتهم ، جنودا في وحدات الانكشارية ، أو خداما في القصر ، أو موظفين كبارا في حكومة السلطان[٨]

وعلى أي حال فان الانكشارية لم يكن لهم في القرن الرابع عشر تلك الاهمية التي اصبحت لهم فيما بعد ، ولم ينظم قانون التجنيد المسمى بالدوشرمة[٩] الا في القرن الخامس عشر على عهد السلطان مراد الثاني[١٠] (١٤٢١–١٤٥١م) . فبعد ادخال هذا النوع من التجنيد أصبح مقدرا لمعظم المجندين أن يصبحوا انكشارية[١١] . وبذلك خلق السلاطين جيشا رسميا دائما يغنيهم في كثير من الاحيان عن المتطوعة .

وقد حدث في تلك الفترة أن أنضوى الانكشارية تحت لواء الطريقة

---

(٨) للتفاصيل ، انظر :

Gibb & Bowen, Op. Cit., Vol I, Pt. I, PP. 56 — 7.

(٩) الدوشرمة هو الاسم الذي يدل على حمل اولاد المسيحيين من رعايا السلطان ممن تتراوح اعمارهم بين العاشرة والعشرين ، على الانخراط في فرق الانكشارية وعلى الخدمة في القصور السلطانية .

A. H. Lybyer, The Government of the Ottoman Empire, (New York, 1966), P. 34, 48.

وللتفاصيل ، انظر :

Encyclopaedia of Islam, art. Dewshirme.

(١٠) محمد فؤاد كوبريلي ، قيام الدولة العثمانية ، ترجمه عن التركية احمد سعيد ، (القاهرة ، ١٩٦٥) ، ص ١٨٩ .

(١١) Gibb & Bowen, Op Cit., Vol. I, Pt. I, P. 59.

البكتاشية[١٢] ، والمعروف ان (حاجي بكتاش) الذى استقيت الطريقة منه، بارك في عهد السلطان اورخان تأسيس الجيش الانكشارى وذلك بوضع كمه على رأس واحد من أفراده ، ورغم ان الرواية اسطورية اذ ان حاجي بكتاش قد توفي قبل قرن تقريبا من مجرد التفكير في انشاء الجيش الانكشارى ، فان الانكشارية اتخذوه حاميا لهم ورمزا . وعمل المتصوفة من طرفهم على أخذ جيش المشاة الجديد تحت رعايتهم الروحية ، وهي رعاية قوبلت بالتجاهل من السلطات الرسمية في بادىء الامر ، وان يكن قد اعترف بها بعد ذلك . وهكذا اصبح الاسم الثاني للانكشارية هو « ابناء حاجي بكتاش » والجند البكتاشية[١٣] .

---

(١٢) انتشرت الطريقة البكتاشية اكثر ما انتشرت في آسيا الصغرى ، ولا يعرف في الواقع متى شكل البكاشيون بالضبط طريقتهم وانهوا تنظيمها ، ولكن يمكن ارجاعها بشكلها المنظم الى القرن الخامس عشر . وتنسب هذه الفرقة نفسها الى « حاجي بكتاش » ، والمعلومات عن هذا الولي خرافية اكثر منها واقعية . ويقال انه كان تلميذا (لبابا اسحاق) زعيم الحركة الصوفية الباطنية بين قبائل الاناضول في منتصف القرن الثالث عشر . ومهما يكن فقد اختاروه وليا لهم وبنو تكيتهم الرئيسية بالقرب من ضريحه في قرەشهر بين انقره وقيصرية .

ومعتقدات البكتاشية قريبة جدا من معتقدات القزل باش في آسيا الصغرى .

Encyclopaedia of Islam, art. 'Bektash'.

وانظر :

احمد سري دده بابا ، الرسالة الاحمدية في تاريخ الطريقة البكتاشية ، (القاهرة ، ١٩٥٩) ، ص ١٥ .

(١٣) عن البكتاشية وعلاقتها بالانكشارية ، انظر :

F. W. Hasluck, Christianity and Islam under the Sultans, Vol. II, (Oxford, 1929), PP. 483 — 493; J. K. Birge, The Bektashi order of Dervishes, (Bristol, 1937), P. 74.

ومارست البكتاشية دورا سياسيا كبيرا لاتحادها مع الانكشارية ، وربما يكون هذا هو السبب الذى منع السلطات العثمانية من ملاحقتهم ، ومهما يكن فانه منذ نهاية القرن السادس عشر تم الاعتراف الرسمي بارتباط الانكشارية بالبكتاشية ، ونال الرئيس العام لطريقتهم رتبة شرفية ، واصبح ثمانية من دراويشهم يقيمون في ثكنات استانبول لتأدية الصلوات اليومية لرخاء الامبراطورية ونصرة قواتها . وفي الاحتفالات كانوا يسيرون امام أغا الانكشارية مرددين ادعية جماعية(١٤) .

وقد أصبح الانكشارية في نهاية القرن الخامس عشر صفوة الفيالق العسكرية التي تستند اليها الدولة العثمانية . وبلغ عدد كتائبهم التي كانت تسمى كل منها (أورطة) ١٦٥ كتيبة(١٥) ، وهي منظمة تنظيما متشابها ، وتعداد كل منها كان خمسون جنديا تحت قيادة ضابط يدعى (الجورباجي) يساعده ستة من مرؤسيه وعدد من ضباط الصف . وهي تقيم في ثكنات تسمى (أوطة) . ولكل كتيبة شارة توضع على اعلامها وعلى أبواب ثكناتها . وجرت عادة الانكشارية على وشم هذه الشارات على أذرعتهم وسيقانهم(١٦) .

---

(١٤) احمد سري دده بابا ، المصدر السابق ، ص ١٥ .
Gibb & Bowen, Op. Cit., Vol I, Pt. I, P. 65.

(١٥) في اواخر القرن الثامن عشر بلغ عدد الاورط (١٩٦) ، واصبح تعدادها يتراوح ما بين ١٠٠ — ٣٠٠ رجل في اوقات السلم . اما عند اعدادها للحرب فان العدد كان يصل الى ٥٠٠ رجل . وكان السبب في هذه الزيادات هو الاسراع في التجنيد .

(١٦) للتفاصيل ، انظر :
Uzunçarsili, Kapukulu Ocaklari, I, PP. 343 — 371; Gibb & Bowen, Op. Cit., Vol. I, Pt. I, PP. 60 — 2; 314 — 328.

وكانت شارات الانكشارية اما مفتاح أو سمكة أو علم أو عصا ذات طرف مدبب من المعدن .

وبرغم تفوق السباهية(١٧) على الانكشارية من الناحيتين العددية والاجتماعية ، فان قادتهم الذين كانوا يؤخذون من أرقى انواع غلمان السلطان ، كانوا يلون أغا الانكشارية في نظام الاسبقية(١٨) .

وكان أغا الانكشارية شخصية بالغة الاهمية لانه قائد اقوى وحدات الدولة المحاربة ولانه كان يقوم بمنصب رئيس الشرطة في استانبول كما انه ـ بحكم منصبه ـ عضوا في مجلس الدولة(١٩) ، ومقدما على كل الوزراء الذين تقل مرتبتهم عن مرتبة الوزير التي كان هو ينعم بها ، كما كان مقدما على كل القواد أيا كانوا . وفي حالة الحرب كانت له ميزة قيادة الفرق الانكشارية في حالة توجه السلطان بنفسه الى الحرب ، والا فانه كان يرسل نائبا عنه كي ينفذ أوامر القائد الذي يدير العمليات(٢٠) .

ومن اوائل الاشارات الرسمية لمهمات الجيش الانكشاري التوسعية كانت في عهد السلطان مراد الثاني ، كما جاء في روايات بعض المؤرخين . اذ انه شارك في الحملات التي وجهها الى بلاد البلقان . وكذلك في الحرب التي شنها السلطان محمد الثاني (١٤٥١ ـ ١٤٨١م) على القبيلة المعروفة باسم الآق قوينلو (الخروف الابيض) في ربيع سنة ١٤٦١(٢١) .

---

(١٧) كانت السباهية بمثابة الفرسان النظاميين في الجيش العثماني . ويقال أن مجموع القوة التي كان يقدمها السباهية مع أتباعهم كانت تصل في بعض الاوقات الى حوالي مائتي الف .
Gibb & Bowen, Op. Cit., Vol. I, Pt. I, P. 52.

(١٨) Ibid, P. 327.

(١٩) كان مجلس الدولة يتألف من الصدر الاعظم وشيخ الاسلام والوزراء وقواد الجيوش البرية والبحرية ويترأس جلساته السلطان . علاء نورس ، حكم المماليك في العراق (بغداد ١٩٧٥) ، ص ٢١٠ .

(٢٠) Gibb & Bowen, Op. Cit., Vol. I, Pt. I, P. 61.

(٢١) سرهنك ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٥٠٤ ، ٥١٣ ، راسم ، المصدر السابق ، جـ١ ص ١٩٧٥ ، ص ٢٠٩ ، محمد فريد ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، (القاهرة ، ١٨٩٦) ، ص ٥٧ ، Creasy, Op. Cit., P. 64.

وفي عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦ م) ، وهو العهد الذى استكملت فيه الدولة العثمانية عناصر قوتها وعظمتها ، مارس الانكشارية ، الذين بلغ تعدادهم ما بين ١٢ و ١٤ ألفا[٢٢] ، دورا مهما في العمليات العسكرية العثمانية في المجر وبلاد فارس[٢٣] . كما ان اسطولا عثمانياً حاملا الانكشاريين ، هاجم في سنة ١٥٥٩ البحرين في محاولة للاستيلاء عليها[٢٤] .

بالاضافة الى المهمات الدفاعية فقد كلفت الانكشارية في الولايات بمهمات أخرى منها حماية الامن وجمع الضرائب . وان قوادهم كانوا أعضاء في الديوان الذى هو الهيئة الحكومة العليا في الولاية[٢٥] .

غير ان شعور الانكشارية بقوتهم على اعتبار أنهم السند الرئيسي للسلطان جعلهم يلجأون الى هذه القوة بالفعل حين اعلنوا عصيانهم في العاصمة سنة ١٤٨١ ، وقتلوا الصدر الاعظم قرمانلي محمد باشا لكتمانه موت السلطان محمد الثاني ومحاولته تنصيب الأمير جم الابن الاصغر للسلطان على العرش بدلا من أخيه بايزيد ، ولم تهدا الفوضى الا بعد تسلم بايزيد مقاليد الحكم ، وقيامه

---

(٢٢) راسم المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٥٧ ، محمد جميل هيم ، فلسفة التاريخ العثماني (بيروت ، ١٩٢٥) ، ص ١٥١ ، Lybyer,Op.Cit., P. 95.

(٢٣) انظر : سرهنك ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٤ ، ٥٥ ، فريد ، المصدر السابق ص ٨٣ ، ٨٧ ، ٩٨ .

(٢٤) ستيفن هيسلي لونكريك ، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ترجمة جعفر الخياط ، الطبعة الرابعة ، (بغداد ، ١٩٦٨) ، ص ٥٩ .

(٢٥) نفس المصدر ، ص ٦٧ ، عبدالعزيز نوار ، تاريخ العراق الحديث ، (القاهرة ، ١٩٦٨) ، ص‌ص ٩ — ١٠ .

بزيادة اعطيات الانكشارية[٢٦] زيادة صارت منذ ذلك الوقت عرفا ثابتا يطلبون انفاذه كلما أرتقى العرش سلطان جديد[٢٧] .

وفي أواخر حكم السلطان بايزيد الثاني (١٤٨١ - ١٥١٢ م) مارس الانكشارية دورا خطيرا في الصراع الذي نشب بين ابنائه المتنازعين على العرش ، وهو بعد على قيد الحياة ، واجبروه على التنازل عن العرش لابنه سليم ، الملقب بـ « ياوز سلطان »[٢٨] . وبذلك تركت هذه العلاقات الشاذة بين السلاطين وابنائهم أو بين هؤلاء الابناء بعضهم بعضا ثغرة واسعة ليفرض الانكشارية نفوذهم على السلطة .

والحق انهم لم يكتفوا بالالحاح في طلب الهبات السخية كلما رقي العرش سلطان جديد ، فقد عانى منهم السلطان سليم الاول الامرين اثناء حملته على بلاد فارس التي انتهت بمعركة جالديران سنة ١٥١٤[٢٩] ، وعدوا ذلك الى ما هو أخطر ، فأكرهوا السلطان على ان يقطع أثناء الحرب الفارسية، رأس الصدر الاعظم ، ورأس قاضي العسكر ، ورأس قائدهم نفسه[٣٠] .

---

(٢٦) سرهنك ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٥١٩ ، فريد ، المصدر السابق ، ص ٦٨ ، Lavallee, Op. Cit., PP. 197 — 8.
ويذكر ليبايران السلطان بايزيد الثاني دفع لكل انكشاري عند تسلمه الحكم الفي آقجة . Lybyer, Op. Cit., P. 92.

(٢٧) ابطل هذا العرف السلطان عبدالحميد الاول سنة ١٧٧٤ . سرهنك ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٦٣٤ .

(٢٨) راسم ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٥١ ؛
Lavallee, Op. cit., P. 203; Creasy, Op. Cit., PP. 127 — 8.

(٢٩) Gibb & Bowen, Op. Cit., Vol. I, Pt. I, P. 179.
وجالديران سهل في آذربيجان شرقي بحيرة ارمية بالقرب من تبريز . وقد ادت المعركة التي دارت فيه الى سقوط تبريز عاصمة الدولة الصفوية في ايدي العثمانيين .

(٣٠) بروكلمان ، المصدر السابق ، ص ٤٦٦ ، انيس ، المصدر السابق ، ص ٧٦.

كذلك تمرد الانكشارية في اوائل حكم سليمان القانوني ، وعاثوا في العاصمة فسادا حتى تدارك السلطان الموقف بالاغداق التقليدي عليهم[٣١] . كما مارسوا دورا رئيسيا في مصرع ولده الاكبر مصطفى ، وانتهت الازمة بأن تولى العرش سليما الثاني . وهنا تبدو خطورة تدخل الانكشارية في السياسة ، اذ كان سليم دون مستوى ابيه وكذلك دون مستوى اخويه مصطفى وبايزيد ، واليه تعزى الى حد كبير كارثة ليبانتو البحرية التي حلت بالاسطول العثماني سنة ١٥٧١[٣٢] .

وفي اواخر القرن الساس عشر استطاع الانكشارية الغاء مبدأ تحريم الزواج والذي يعد من مبادىء تنظيم الرئيسية، الامر الذي ترتب عليه أن أصبح الانتماء اليهم وراثيا بصرف النظر عن المقدرة العسكرية[٣٣] .

والحقيقة ان نظام الانكشارية تعرض الى التصدع منذ عهد السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ – ١٥٩٦م) حين سمح في سنة ١٥٨٢ بدخول عدد كبير من المجندين غير المدربين في صفوفهم ، بالرغم من معارضة أغا الانكشارية. ويعتقد كب ان مرادا كان راغبا في الواقع في افساد تنظيم الانكشارية بعد ان لاحظ الى أي مدى هم سادة الدولة[٣٤] . يضاف الى ذلك انه ، في اثناء الحرب مع بلاد فارس ، وهي الحرب التي نشبت في عهده ، سمح بتجنيد عدد

---

(٣١) فريد ، المصدر السابق ، ص ص ٨٣ – ٨٤ .
وانظر : Lybyer, Op. Cit., P. 92.

(٣٢) سرهنك ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٥٨ ؛ Lybyer, Op. Cit., PP. 94 — 5.
وليبانتو هي المعركة البحرية التي دارت بين الدولة العثمانية من جهة واسبانيا والبندقية من جهة اخرى وترتب عليها انهيار البحرية العثمانية في البحر المتوسط .

(٣٣) Gibb & Bowen, Op. Cit., Vol. I, Pt. I, P. 182.

(٣٤) Ibid, P. 180.

اكثر من ذلك ، فاصبح عدد الانكشارية في نهاية عهده اكثر من ضعف ما كان عليه[٣٥] .

وتمخض هذا الاجراء عن نتيجة مزدوجة ، فهو قد نسف نظام الدوشرمة ، اذ كان من الواضح أن هذا النظام سيصبح عقيما فيما لو تكررت هذه الاجراءات ، ثم انه أجهد خزانة الدولة كثيرا . يضاف الى ذلك أن الاثر الثاني قد ترتب عليه استشراء الاثر الاول بشكل حاسم حيث لجأت الحكومة الى خفض العملة لكي تدفع رواتب الجيش الذى زيدت اعداده ، وهذا بدوره أدى الى نشوب ثورات في العاصمة ، وهي ثورات قام بها الانكشارية اولا ثم قامت بها فرق الخيالة بعد ذلك بسنوات قليلة[٣٦] . وكانت أخطر تلك الثورات تلك التي اندلعت في سنة ١٥٨٧ اذ قام الانكشارية بقتل ناظر الضربخانة[٣٧] والدفتردار وهاجموا السراى السلطانية[٣٨] .

ومنذ ذلك الوقت سرى الانحلال الى انكشارية الولايات ، وفشل الباشوات في مواجهة اعمال العدوان التي كانوا يقومون بها . فقد مارسوا ـ على سبيل المثال ـ في بغداد دورا خطيرا في الفتن الداخلية ونشب القتال اكثر من مرة بينهم وبين القوات المحلية ، وضج الناس بالشكوى من تعدياتهم[٣٩] .

---

(٣٥) يذكر جودت ان عدد الانكشارية في اواسط حكم السلطان مراد الثالث كان يقدر ب (٢٧) الفا . (تاريخ جودت ، ج ١ ، ص ٤٨) .

(٣٦) Gibb & Bowen, Op. Cit., Vol. I, Pt. I, P. 180.
للتفاصيل ، انظر : Encyclopaedia of Islam, art. 'Murad III'.

(٣٧) دار سك النقود .

(٣٨) سرهنك ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٦٧ .

(٣٩) خير من وضح ذلك :
C. Huart, Historie de Bagdad, (Paris, 1909), PP. 36 — 49, 80, 85. 92 — 3.

وانظر : لونكريك ، المصدر السابق ، ص‌ص ٦٨ ، ١١٤ ، ١١٨ ، ٢٠٠ ـ ٢٠١ ، ٢٠٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٨ ، ٢٦٧ .

وقد استطاع احد القادة الانكشاريين في بغداد المدعو محمد بن أحمد الطويل ان يستأثر في سنة ١٦٠٧ بالسلطة العليا في المدينة ، وان يهزم جيشا ارسله الباب العالي لاخضاعه ، بقيادة نصوح باشا والي ديار بكر • ولكنه ما لبث أن قتل من قبل احد اعدائه ، وعندما خلفه أخوه مصطفى في تولي الحكم حدثت ثورة في بغداد اطاحت به ، وأنهت السيطرة الانكشارية[٤٠] •

وبرز بعد أربعة عشر عاما ثائر آخر من بين انكشارية بغداد هو بكر صوباشي[٤١] • ـ احد قوادهم ـ الذى عظم شأنه كثيرا وتعالت سلطته فتفوقت على سلطة الوالي الضعيف يوسف باشا واستطاع في سنة ١٦٢١ أن يستأثر بالحكم بعد أن تمكن من القضاء على الحركة التي استهدفت الاطاحة به والتي قام بها أشراف المدينة ، وقتل اثناءها باشا بغداد[٤٢] •

وقد غدا الصوباشي سيد بغداد غير المنازع ، ونصب نفسه للباشوية ، فكان ذلك ممهدا لوقوع بغداد فريسة بيد الفرس • اذ استنجد بالشاه عباس الكبير عندما اصدرت القيادة العثمانية اوامرها الى حكام الولايات المجاورة (الموصل وشهرزور ومرعش وسيواس) للزاحف نحو بغداد والقضاء على السيطرة الانكشارية[٤٣] •

---

(٤٠) مصطفى نعيما الحلبي ، تاريخ نعيما ، جـ١ ، (استانبول ١٢٨١) ، ص٤٥٨ ، مرتضى نظمي زاده ، كلشن خلفا ، ترجمة موسى كاظم نورس ، (النجف ، ١٩٧١) ص ٢١١ •

(٤١) صوباشي : من الالقاب الحربية والشرطية ، شاع استعماله في الاناضول منذ القرن الرابع عشر • وقد اصبح الصوباشي في الولايات من كبار ضباط الشرطة ، كما كانت له مهام اخرى منها التجوال في الاسواق والمحلات ومراقبة نظافتها ، واخبار رئيس المعمارين بما هو متداع من الابنية. محمود شوكت ، عثمانلي تشكيلات وقيافت عسكرية ، (استانبول ، ١٣٢٥) ، ص ٦٠ ، يعقوب سركيس ، مباحث عراقية ، ق٢ ، (بغداد ، ١٩٥٥) ، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤ •

(٤٢) مصطفى عبدالله كاتب جلبي ، فذلكة كاتب جلبي ، جـ٢ ، (استانبول ، ١٢٨٥) ، ص ٣٩ •

(٤٣) نفس المصدر ، ص ٤٠ ، منجم باشي ، صحائف الاخبار ، جـ٣ ، (استانبول ، ١٢٨٥) ، ص ٦٥٨ ، لونكريك ، المصدر السابق ، ص ٧٤ •

فكانت هذه فرصة للشاه لم يتوان عن انتهازها لكي يتوسع على حساب العثمانيين ، فزحف نحو بغداد واستطاع احتلالها في ٢٨ تشرين الثاني ١٦٢٣ (٢ صفر ١٠٣٣ هـ)[٤٤] .

وقد بذل السلطان عثمان الثاني (١٦١٨ - ١٦٢٢ م) جهدا كبيرا لكبح جماح الانكشارية ، الا انهم كانوا من القوة بحيث عجز عن التغلب عليهم ، وانتهى النزاع بخلعه وقتله . وبدأ يكون للانكشارية شأن سياسي ، فأرهبوا الحكام وأخذوا يولون الوزراء ويعزلونهم ويمنحون المناصب لمن يجزل لهم العطايا[٤٥] .

وتكشف القصة المستمرة لشغب الانكشارية ، عن ظروف الضعف المتزايد الذى اصاب الدولة العثمانية من الداخل ، وعن الفوضوية العسكرية التي كانت سببا في الاخفاق الذى مني به الجيش العثماني مرتين في حربه مع الفرس ، والتي استهدفت استعادة بغداد .

والجدير بالذكر انه في الوقت الذى كانت القوات الفارسية تحتل بغداد ، كانت الدولة العثمانية تواجه اخطارا وكوارث ، فقد تجمعت سحبا سوداء حول مطلع عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٤٠ م) الذى ولاه الانكشارية العرش ، اذ يذكر المؤرخ كريسي « انه كانت تصل من كل اجزاء الامبراطورية الرسائل حاملة أنباء لا تسر : فهؤلاء هم الفرس المرابطون على الحدود ، وهذا هو الثائر اباظة[٤٦] صاحب الامر والنهي على اسيا الصغرى ، وهناك كذلك قبائل لبنان المتمردة علنا ، كما ان حكام مصر

---

(٤٤) فذلكة كاتب جلبي ، جـ٢ ، ص ٤٦ ، كلشن خلفا ، ص ٢٢٠ .

(٤٥) فريد ، المصدر السابق ، ص ص ١٢٣ - ١٢٤ .

وانظر : Creasy, Op. Cit., P. 243.

(٤٦) كان اباظة باشا واليا على ارضروم ، وقد اعلن عصيانه اكثر من مرة ، واخيرا تمكنت الدولة من اخضاعه وابعدته الى البوسنة سنة ١٦٢٨ .
فريد ، المصدر السابق ، ص ص ١٢٥ - ١٢٦ ،

والولايات الاخرى يتأرجح ولاؤهم للسلطان ، وايضا هؤلاء البرابرة يجعلون من أنفسهم أوصياء على العرش متظاهرين بأنهم من ذوي السلطات المستقلة التي تتيح لهم أن يعقدوا معاهدات مع الامم الاوربية لحسابهم الخاص ، وليس هذا فقط ، بل ان الاساطيل القوقازية المغيرة لم تكتف بما كانت بأستمرار على طول البحر الأسود ، فأخذت تظهر في البسفور ، وراحت تنهب الأماكن القريبة جداً من العاصمة .ثم ان في القسطنطينية نفسها ، كانت هناك خزينة خاوية ، ودار صناعه معطلة ، ونقود قليلة القيمة لانخفاض قيمة الذهب والفضة فيها اثناء سكنها ، ومخازن للذخيرة هزيلة ، وسكان يسوتون جوعا ، وجند بلغ بهم الفجور مبلغا »[٤٧] .

وفي سنة ١٦٣١ قام الانكشارية بحركة عصيان خطيرة في القسطنطينية ، على اثر التغييرات التي اجراها السلطان مراد الرابع في القيادة العسكرية ، بعد ان فشل الجيش العثماني في انقاذ بغداد من الاحتلال الفارسي . فتمرد الانكشارية في السراى نفسه ، واخذوا يطالبون برأس كل من الصدر الاعظم والمفتى والدفتردار . وكذلك طالبوا بتسليم أناس آخرين من المقربين الى السلطان وبلغ عدد الذين طالبوا بهم سبعة عشر شخصا . وأقفلت العاصمة محلاتها وأصبحت والسراى في حالة رعب . ولم يجد السلطان بدا من تسليم الصدر الاعظم اليهم والتضحية به ، بعد أن كاد تمردهم أن يطيح به ايضا ، فقتلوه أشنع قتلة في حضرة السلطان نفسه[٤٨] (شباط ١٦٣٢) .

(٤٧) Creasy, Op. Cit., PP. 246 — 7.

وانظر : أوليا جلبي سياحتنامه سي ، جـ١ ، (استانبول ، ١٣١٤) ، ص ٢٢٨ .

(٤٨) تاريخ نعيما ، ج٣ ، ص ٨٤ ، ٩٢ ، خيرالله افندي ، دولت عليه عثمانية تاريخي ، جـ١٧ ، (استانبول ١٢٩٢) ، ص ٤٤ ، سرهنك ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٥٨٠ .

ويذكر كريسي تفاصيل المحنة التي واجهت السلطان مراد الرابع والظروف التي حملته على الاستجابة لمطلبهم ، ومما يذكره ان السلطان عندما خاطب المتمردين الذين تجمعوا في الساحة الثانية للسراى والتي كانت تعد بمثابة قاعة الديوان ، قائلا : « ما الذى ترغبون اليه يا رعاياى ؟ » أجابوه في صوت عال وبوقاحة : « اعطنا السبعة عشر رأسا ... أو يسير الامر معك الى ما لاتحمد عقباه » . كما انهم كانوا يصيحون عاليا مرددين « السبعة عشرة رأسا او التنازل عن العرش » وقد توسل اليهم السلطان الا يدنسوا شرف الخلافة ، ولكنه كان يتشفع عند من لا شفاعة لهم ، فاستسلم لمطلبهم وملؤه الاسف ، وارسل يستدعي الصدر الاعظم حافظ أحمد باشا للسوت ، وعند مجيئه خاطب مراد الرابع قائلا : « مولاى ، ليهلك الف عبد مثل حافظ في سبيلك ، انني فقط اتضرع اليك الا تقتلني انت ، بل دعني لهؤلاء الرجال لاموت شهيدا وليجرى وزر دمي البرىء على رقابهم ، ولتأمر بدفن جثماني في اسكودار »[٤٩] . ويصور كريسي بعد ذلك تفاصيل المشهد الذى تم فيه قتل الصدر الاعظم ومما يقوله ان احد الانكشارية جثم على صدره وجز رأسه . وعلى مدى شهرين بعد هذا الحادث ، سقط ضحايا جدد أمام الغوغاء ، الامر الذى جلب العار الى اسم القوات العثمانية[٥٠] .

وازاء هذا الوضع الشاذ ، كان لابد للسلطان ان يخطط لكسر شوكة الانكشارية . وقد تم ذلك في ٢٩ مايس ١٦٣٢ ، بعد ان نظمت تدريجيا وبهدوء قوة جسورة يمكن الاعتماد عليها في وقت الحاجة ، كما ان المنازعات داخل القوات المتمردة نفسها ، وبخاصة بين السباهية والانكشارية ، جعلت

---

(٤٩) اقدم واكبر حي بالعاصمة العثمانية القسطنطينية ، في جزئها الواقع على الجانب الاسيوي من البسفور .

(٥٠) Creasy, Op. Cit., PP. 248 — 9.

هناك ثمة فرصة لكبح جماح الجميع[٥١] • فأمر السلطان بقتل كل من ثبت عليه اية مساهمة في حوادث الشغب الاخيرة[٥٢] • وقد قتل من بينهم الصدر الاعظم رجب باشا الذى كان يحرض الثائرين سرا[٥٣] ، حيث رأى السلطان انه لم يعد هناك مفر من مواجهة البديل المخيف «اقتل أو تقتل» ، وذلك بعد أن أخذ الانكشارية يتناقشون في مسألة عزله بشكل علني في ثكناتهم[٥٤] • كما وزع اعدادا كبيرة منهم على حاميات الحدود ، وانشأ تشكيلات جديدة يستطيع الاعتماد عليها[٥٥] • ولكي يخفض عدد المشاة الانكشارية اوقف التجنيد بالدوشرمة • غير ان ذلك ادى الى نتائج وخيمة بالنسبة الى القوة العثمانية ، اذ قد تضمن اضمحلال نظام التدريب العسكرى والادارى بأسره • وكان بالامكان تخفيف آثار ذلك فيما لو ألغي في نفس الوقت الجنود الذين وضع النظام في الاصل لتزويد الدولة بهم ، وحل محلهم آخرون أحسن تدريبا ونظاما ، ولكن التشكيلات التي انشأها مراد الرابع لم تكن من القوة بحيث تكفي للقضاء على الانكشارية[٥٦] •

---

(٥١) Creasy, Op. Cit., P. 294.

(٥٢) فريد ، المصدر السابق ، ص ١٢٧ •
يذكر كريسي انه « في كل صباح كان البسفور يرمي على الشواطيء بجثث اولئك الذين اعدموا في الليلة السابقة ، وكان الجمهور القلق يتعرف على الانكشاريين والسباهيين الذين كانوا يشاهدونهم في الفترة الاخيرة متجمعين في الشوارع بكل غطرسة الفوضى العسكرية ». Creasy, Op. Cit., P. 251.

(٥٣) فذلكة كاتب جلبي ، جـ٢ ، ص ١٤٢ ، تاريخ نعيما ، جـ٣ ، ص ١١٠ •

(٥٤) Creasy, Op. Cit., P. 249.

(٥٥) تاريخ نعيما ، جـ٣ ، ص ١١٢ •

(٥٦) Gibb & Bowen, Op. Cit., Vol. I, P. 181.

وهكذا ظل الانكشارية يثيرون المتاعب ويبهظون الدولة بالنفقات ، وبالتالي اصبحوا عديمي الجدوى في الحرب(٥٧) ، ومثلا للفساد والانحلال تحتذيه كل قوة أخرى منافسة تكونها الدولة لتلافي عيوبهم .

ومما زاد في فساد الانكشارية ان الكثيرين منهم أخذ يشتغل بالوان من النشاط الصناعي والتجاري(٥٨) ، الامر الذي ترتب عليه تضاءل ارتباطهم بثكناتهم ، فصار العديد منهم لا يذهب الى الثكنات الا لتسلم المرتبات ، التي كانت تسمى « العلوفات » ، اضافة الى قيام بعضهم ببيع تذاكر علوفاتهم الى الراغبين من الناس(٥٩) . لهذا اصبح امرا غير عادي باطراد بالنسبة اليهم ان يعيشوا في الثكنات ، وازدادت صعوبة اخضاعهم للنظام والتدريب . يضاف الى ذلك ان موظفين من ذوي النفوذ استعملوا اعلام الانكشارية - حين رأوها قد اهملت - في الحصول على تسجيل اسماء خدمهم واتباعهم في قوائم الجيش ، وبذلك كانوا يكلفون الدولة باعالتهم . كما ان الغاء نظام الدوشرمة ادى الى دخول المسلمين الاحرار في الفرقة الانكشارية ، وارتباط هؤلاء بأسرهم وبحرفهم جعل الانكشارية عبارة عن رجال مدنيين في الغالب(٦٠) .

---

(٥٧) في سنة ١٦٢٦ اضطر الصدر الاعظم حافظ احمد باشا الذي كان يحاصر بغداد في محاولة لاستعادتها من ايدي الفرس ، الى الانسحاب بسبب تمرد الانكشارية وعدم رغبتهم في مواصلة الحرب . كذلك اضطر القائد حسين باشا سنة ١٦٤٨ الى رفع الحصار عن مدينة (كنديا) عاصمة جزيرة كريت لنفس السبب .

انظر : تاريخ نعيما ، جـ٢ ، ص ص ٣٨٥ - ٣٨٦ ، سرهنك ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٥٧٦ .

(٥٨) J. A. Marriott, The Eastern Question (Oxford, 1958). P. 102.

وكان قد حرم على الانكشارية تحريما قاطعا ان يعملوا في التجارة او الصناعة .

(٥٩) ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، (بيروت ، ١٩٦٥) ، ص ٤٧ .

(٦٠) Gibb & Bowen, Op. Cit., Vol. I, Pt. I, P. 182.

ويذكر كب - على سبيل المثال - انه لاجل الحصول على امتيازات الانكشارية اصبح معظم الشعب البغدادي انكشارية .

وقد بذلت الدولة محاولات متكررة لانقاص عدد الرجال الذين وضعت اسماؤهم في القوائم الرسمية . ولكي تسهل الحكومة هذا الاجراء يحتمل انها سمحت بتطور آخر كانت له نتائج سيئة كذلك . وهو تغلغل عدد كبير من الرجال غير المأجورين في كتائب الانكشارية في اوقات السلم ، وكان هؤلاء الرجال - حين يطلبون - يسجلون رسميا على ايدي ضباط متنقلين . وكان الاجراء مغريا لكل من الانكشارية والرجال المرتبطين بالفرقة بهذا الشكل ، فهؤلاء الاخيرون يحلفون يمين الانضمام ثم يلبسون بعد ذلك شعار كتيبتهم (أورطتهم) الموشوم على اذرعتهم وسيقانهم . وحين يتم ذلك كانوا يتمتعون بمركز ممتاز ، فمثلا كانوا يشبهون الانكشارية الاصليين في اعفائهم من عقاب السلطات المدنية لهم[٦١] . وكانوا يستطيعون ان يسخروا نفوذ الفرقة لمصالحهم الخاصة . كما ان الانكشارية الاصليين حصلوا على قوة احتياطية ضخمة مكنتهم من فرض ارادتهم على بقية المجتمع بشكل اسهل من اى وقت مضى[٦٢] .

ولا أريد ان اسهب في ذكر ضروب الفساد التي اخذت تشق طريقها الى نظام الانكشارية ، فقد تحولوا الى اداة هزيمة وتخريب ، واستمرت تمرداتهم خلال القرن الثامن عشر ، وكانت اخطرها تلك التي حدثت في عهد السلطان احمد الثالث (١٧٠٣ - ١٧٣٠ م) ، اذ تمكن الانكشارية في الثامن والعشرين

---

(٦١) من المزايا المرتبطة بوضع الانكشارية ، الحصانة ضد القبض عليهم . وضد قيام السلطات المدينة بتوقيع العقاب عليهم ، وانما كانوا يخضعون خضوعا تاما لسلطة كبار ضباطهم الذين كانوا هم يقاضون المذنبين منهم ويعاقبونهم .
Gibb & Bowen, Op. Cit., Vol. I, P. 63, 324.

(٦٢) Ibid, 183.

من ايلول ١٧٣٠ ، من فرض سيطرتهم التامة على العاصمة[٦٣] ، وظلوا لمدة ثلاثة ايام متتالية يطالبون برأس الصدر الاعظم وعدد من كبار رجال الدولة ، وذلك على اثر الانتصارات التي احرزها الفرس ضد القوات العثمانية المحتلة لاراضيهم وما سببته من هياج كبير في العاصمة العثمانية[٦٤] . وقد اضطر السلطان احمد الى ان يستجيب لمطلبهم ، خوفا من ان يطيح تمردهم به[٦٥] فأعدم الصدر الاعظم واثنين من ذوي الشأن . لكن انصياعه لهم لم يمنعهم من العصيان عليه ، فاعلنوا اسقاطه عن العرش[٦٦] .

وفي الوقت الذى كان فيه الانكشارية يسببون المتاعب للسلاطين ، لحقت الدولة العثمانية في المجال الخارجي ـ طوال القرن الثامن عشر ـ هزات خطيرة على يد الدول الاوربية[٦٧] ، مما ادى الى ظهور تجاه جديد في الدولة العثمانية يدعو الى اصلاح الدولة ونظم الحكم فيها وهو الاتجاه المعروف بحركة الاصلاح والتجديد[٦٨] .

---

(٦٣) كامل باشا ، تاريخ سياسي دولت عليه عثمانية ، جـ٢ (استانبول ، ١٣٢٧) ، ص ١٤١ ، فريد ، المصدر السابق ، ص ١٤٦ ،

V. J. Parry, A History of the Ottoman Empire to 1730 (London, 1976), P. 218.

وينفرد كريسي بجعل تاريخ حدوث العصيان في العشرين من ايلول .

Creasy, Op. Cit., P. 349.

(٦٤) فريد ، المصدر السابق ، ص ١٤٦ ،

Lavallee, Op. Cit., P. 366; Creasy, Op Cit., P. 350.

(٦٥) سبق ان تمرد الانكشارية في عهد سلفه السلطان مصطفى الثاني (١٦٩٥ ــ ١٧٠٣ م) واجبروه على التنازل عن العرش . سرهنك ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٦١٣ .

(٦٦) تاريخ جودت ، جـ ١ ص ٧٤ ، سعيد الاحدب ، تفصيل الياقوت والمرجان في اجمال تاريخ دولة بني عثمان ، (بيروت ، ١٣٠٤) ، ص ١٠٢ .

(٦٧) انظر Eliot, Op. Cit., PP. 63 — 5; Creasy, Op. Cit., PP. 323 — 325

(٦٨) الحصري ، المصدر السابق ، ص ٧٢ .

ولقد كان من الطبيعي ان يستهدف الاصلاح ، في المحل الاول ، انشاء جيش جديد يحل محل الانكشارية الذين ذر التمرد قرنه في صفوفهم ، **واتهوا** الى ان يكونوا بلاء الدولة .

والواقع ان الاصلاح العسكري قد بدأ في عهد السلطان مصطفى الثالث (١٧٥٧ - ١٧٧٤ م) ، ولكن خوف السلطان من الانكشارية(٦٩) جعله يتجنب اصلاحهم ، واتجه الى تنظيم البحرية والمدفعية(٧٠) . غير ان هذا لم يكن ذا نفع كبير لانه لم يتناول القوة الرئيسية في الجيش ، وهي المشاة (الانكشارية).

ومع ان محاولات اصلاح الجيش سارت سيرا حثيثا في عهد السلطان عبدالحميد الاول (١٧٧٤ - ١٧٨٩ م) ، الا انها لم تلبث ان دخلت في طور جديد في عهد خليفته السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧م) الذي كان يؤمن بضرورة اصلاح الجيش على اساس النظام الاوربي الحديث .

---

(٦٩) يذكر المؤرخ التركي جودت باشا الحوار التالي الذي جرى بين السلطان مصطفى الثالث والدفتردار حليم افندي : « ... اذا نحن لم ننظم العساكر حسب التنظيمات الجديدة فلا نقدر على مقاومة اوربا فما العمل حينئذ ؟ فقال حليم افندي : فلندخل الانكشارية تحت النظام ، فقال السلطان : وهل يقبلون النظام ؟ قال : نعم ، فقال : وهل تتعهد انت بذلك ، قال : نعم ، غير متردد ، فأوقع هذا الكلام عليه الشبهة ، وتصور حضرة السلطان ان حليم افندي او لم يكن له مداخلة مع الانكشارية ، لما تجرأ على هذا الجواب القطعي واتهمه انه سيكشف هذا السر لهم ، فأبعده عن الاستانة خوفا من الانكشارية في صورة متصرف على الموصل ، فلما كان في الطريق ، نفاه ثم أعدمه » .

انظر : تاريخ جودت ، جـ١ ، ص‌ص ١٣٥ - ١٣٦ .

(٧٠) راسم ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٨٤ ، الحصري ، المصدر السابق ص ٧٦ .

فقد قرر هذا السلطان انشاء فرق جديدة من المشـــاة ، دون ان يتعرض للانكشارية ، الذين سمح لهم بان ينظموا الى هذه الفرق اذا شاءوا ، واستقدم من اجل تدريبها عددا من الضباط الخبراء الاوربيين[٧١] . وسعى السلطان الى تعميم النظام الجديد في الولايات ، فيذكر المؤرخون ان والي بغـــداد سليمان باشا الكبير اخذ بهذه الفكرة ، اذ عهد الى ضابط انكليزي استقدمه من الهند بتعليم وتنظيم الجيش الجديد[٧٢] ، كما يذكرون ان والي مصـر خسرو باشا اهتم ايضا بهذا الامر ، وشرع في انشاء ثكنـة خاصـة بجيش « النظام الجديد » . وأخذ كذلك بهذه الفكرة احمد باشـا الجـزار والي عكـا[٧٣] .

غير ان الانكشارية ما لبثوا ان تآمروا على السلطان سليم وارغموه على الغاء « النظام الجديد » الذى وصفوه بانه بدعة مخالفة للشرع ، واعدموا جميع مؤيديه من رجال الدولة[٧٤] . ولم يكتف الانكشارية بذلك ، بـل

---

(٧١) سرهنك ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٦٤٥ ، فريد ، المصدر السابق ، ص ١٧٩ ، للتفاصيل انظر :
Stanford J. Shaw, The Ottoman Empire Under Sultan Selim III, (London, 1971), PP. 127 — 137.

(٧٢) استطاع سيلمان باشا الكبير (١٧٨٠ ــ ١٨٠٢ م) ان يجمع الف مملوك ، واخذ يدربهم وفق النظام الاوربي الحديث ، وامدته حكومة بومباي في سنة ١٧٩٨ و ١٧٩٩ بكثير من الاسلحة وعدد من الضباط الخبراء . (عـــلاء نورس ، المصدر السابق ، ص ١٢٧) .

(٧٣) الحصري ، المصدر السابق ، ص‌ص ٧٧ ــ ٧٨ ؛
Shaw, Op. Cit., P. 132, 135.

(٧٤) يذكر المؤرخون ان عددا كبيرا من الانكشارية ، تجمعوا في ميدان الســباق (آت ميدان) وصفوا القدور الخاصة بهم علامة على العصيان ، ثم قرىء عليهم احد رؤسائهم اسماء جميع المؤيدين لجيش النظام الجديد من الوزراء والاعيان ، فذهبوا الى منازلهم ثم اعدموهم وآتوا برؤوسهم ووضعوها امام القدور . ولما بلغ السلطا نخبر هذا العصيان أصدر على الفور أمرا بالغاء النظام الجديد . سرهنك ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٦٥٨ ، راسم ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٨٤ ، فريد ، المصدر السابق ، ص ١٩٤ .

استصدروا فتوى من شيخ الاسلام بوجوب عزله حتى لايتركوا له فرصة احياء النظام الجديد ، وعزلوه بالفعل سنة ١٨٠٧[٧٥] •

ولم يكن من غير المنتظر ان تعود الفوضى ادراجها الى الجيش في عهد السلطان مصطفى الرابع (١٨٠٧ - ١٨٠٨ م) الذى نصبه الانكشارية محل السلطان سليم الثالث المخلوع ، ولم يكن من غير المنتظر كذلك ان تتوالى هزائم الدولة امام اعدائها • فلما تولى السلطان محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩م) العرش - بعد ثورة دموية قتل فيها السلطان مصطفى - ادرك انه لن يتمكن من اصلاح الجيش الا بالتخلص من الانكشارية ، ولكنه تريث في الامر وراح يستعد لهذه المهمة الخطيرة ، خصوصا وان الانكشارية كانوا يستمدون نفوذهم وسطوتهم من البكتاشيه ، وهم من اكبر فرق الطرق الصوفية في البلاد •

وفي بادىء الامر ، حاول محمود الثاني اقناع الانكشارية بقبول التعليم العسكرى على النظام الاوربي ولكن دون جدوى ، بل كانوا ينكرون فائدته قائلين : « ان ولي الله الحاج بكتاش ، كان قد بارك جماعة الانكشارية عند تأسيسها ، ودعا لها بالنصر الدائم » ، وكانوا يزعمون أن بركة ذلك الولي ودعاءه يغنيها عن كل تعليم[٧٦] •

(٧٥) احمد رشيد ، مكمل تاريخ عثماني ، (استانبول ، ١٣٢٧) ، جـ٢ ، ص ٥٦٠ ، راسم ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٨٥ ،
Shaw, Op. Cit., P. 137, 406 — 7.

(٧٦) الحصري ، المصدر السابق ، ص ٧٧ •

وخلال سنوات حكمه الاولى استطاع ان يتخلص سرا من جماعات صغيرة من الانكشارية(٧٧) ، ثم انتهز فرصة اندلاع الثورة في اليونان(٧٨) وفشل الانكشارية في اخمادها لاستئناف العمل ضدهم ، بعد ان اسند معظم المناصب الرئيسية الى رجال مخلصين له شخصيا(٧٩) . حتى اذا وافى ربيع سنة ١٨٢٦ أصدر امره بانشاء جيش نظامي جديد ، وقد تلا ذلك هياج حسب العادة ، وطالب الانكشارية بالغاء قوانين التدريب المستحدثة ، الا ان النتيجة كانت شيئا جديدا ، فقد تم في ١٥ حزيران ١٨٢٦ تطويق الانكشارية في ساحة (آت ميدان) حيث كانوا مجتمعين وصدرت الفتوى بوجوب ابادتهم ، ومن ثم دارت رحى مجزرة لم يسلم من هولها الا القليل . كما قتل عدد كبير من الانكشارية في الاقسام الاخرى من العاصمة ومختلف المدن التركية الاخرى. وطلب من حكام الولايات اتخاذ خطوات مماثلة والغاء الانكشارية المحلية(٨٠).

وفي ضوء ما تقدم يمكن القول ان الانكشارية كانوا في المراحل الاولى، قوام الجيش العثماني وعماده ، ويكونون فئة عسكرية منيعة الجانب تفانت في الذود عن الدولة . وانهم ساهموا بشكل فعال في توسيع رقعتها . على ان وضعهم طرأ عليه تبدل انقلابي غير يسير منذ نهاية القرن السادس عشر ،

---

(٧٧) Hasluck, Op. Cit., Vol. II, P. 619.

(٧٨) وهي ثورة المورة الشهيرة (١٨٢١ ــ ١٨٢٧) ، التي شملت جميع اجزاء اليونان وجزر بحر ايجة .

(٧٩) فريد ، المصدر السابق ، ص ٢٢٠ ، بروكلمان ، المصدر السابق، ص ٥٤٠ .

(٨٠) راسم ، المصدر السابق ، ج٤ ، ص ١٧٢٣ ، فريد ، المصدر السابق ، ص ٢٢٠ ،

Bernard Lewis, The Emergence of Modern Turkey, (London, 1968), PP. 78 — 9.

عندما بدأ الفساد يدب في نظامهم وبدأوا يفقدون روحهم العسكرية حتى تحولوا في آخر الامر الى معول من معاول الهدم ، واقفين بشكل سافر امام جميع محاولات السلاطين الرامية الى الاصلاح وتطبيق القوانين العسكرية الحديثة والتي كانت تنتهي احيانا بنتائج مؤسفة كما توضح ذلك في سياق البحث .

وبالرغم من ان الانكشارية غدوا من عوامل تدهور الدولة العثمانية ، وان التخلص منهم كانت الحاجة ماسة اليه ، الا ان الدولة العثمانية ظلت تعاني من الانحطاط وان اخذت تسير في طريق الاصلاح سيرا مطردا ، ويمكن ان يعزا ذلك الى التدخلات الاجنبية المستمرة في شؤونها ، وما ترتب عليها من مشاكل ، وكذلك مساوىء الموظفين والولاة ومحاولات بعضهم الاستقلال عن السلطة المركزية . وبذلك لا يمكن ان نحمل الانكشارية المسؤولية كاملة في تدهور الدولة العثمانية ، وانما من الانصاف ان نقول انهم كانوا من جملة عوامله حتى سنة ١٨٢٦ .

المصـــادر

(١) الاحدب ، سعيد ، تفصيل الياقوت والمرجان في اجمال تاريخ دولة بنـي عثمان ، بيروت ١٣٠٤

(٢) انيس ، محمد ، الدولة العثمانية والشرق العربي ، القاهرة .

(٣) اولياء جلبي ، محمد ظلي بن درويش ، اوليا جلبي سياحتنامة سي،ج ١ ، استانبول ١٣١٤ .

(٤) بروكلمان ، كارل ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة نبيه فارس ومنير بعلبكي ، ط٦ ، بيروت ١٩٧٤ .

(٥) بيهم ، محمد جميل ، فلسفة التاريخ العثماني ، بيروت ١٩٢٥ .

(٦) جواد ، أحمد ، تاريخ عسكري عثماني ، استانبول ١٢٩٩ .

(٧) جودت ، احمد ، تاريخ جودت ، ج١ ، ترجمه عن التركية عبدالقـادر الدنا ، بيروت ١٣٠٨ .

(٨) الحصري ، ساطع ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، بيروت ١٩٦٥ .

(٩) الحلبي ، مصطفى نعيما ، تاريخ نعيما ، جـ ٢ ، ٣ ، استانبول ١٢٨١ .

(١٠) خيرالله افندي ، دولت عليه عثمانية تاريخي ، ج١٧ ، استانبول ١٢٩٢ .

(١١) راسم ، احمد ، رسملي وخريطه لي عثمانلي تاريخي ، أربعة أجـزاء ، استانبول ١٣٣٠ ــ ١٣٣٥

(١٢) رشيد ، أحمد ، خريطة لي ورسملي مكمل تاريخ عثماني ، جـزءان ، استانبول ١٣٢٧ .

(١٣) سرهنك ، اسماعيل ، حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج١ ، القاهـرة ١٣١٢ .

(١٤) سركيس ، يعقوب ، مباحث عراقية ، ق٢ ، بغداد ١٩٥٥ .

(١٥) شوكت ، محمود ، عثمانلي تشكيلات وقيافت عسكرية ، استانبول ١٣٢٥

(١٦) فريدبك ، محمد ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، القاهرة ١٨٩٦ .

(١٧) كاتب جلبي ، مصطفى عبدالله ، فذلكه كاتب جلبى ، جزءان ، استانبول ١٢٨٥ .

(١٨) كوبرلي ، محمد فؤاد ، قيام الدولة العثمانية ، ترجمه عن التركية احمد السعيد ، القاهرة ١٩٦٥ .

(١٩) لونكريك ، ستيفن هيمسلي ، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديـث ، ترجمة جعفر الخياط ، ط٤ ، بغداد ١٩٦٨ .

(٢٠) محمد ، كامل باشا ، تاريخ سياسي دولت عليه عثمانية ، ثلاثة اجزاء ، استانبول ١٣٢٧ .

(٢١) منجم باشي ، احمد بن لطف الله ، صحائف الاخبار ، ثلاثة اجــزاء ، استانبول ١٣٨٥ .
(٢٢) نظمي زاده ، مرتضى افندي ، كلشن خلفا ، ترجمه عن التركية موسى كاظم نورس ، النجف ١٩٧١ .
(٢٣) نوار ، عبدالعزيز ، تاريخ العراق الحديث ، القاهرة ١٩٦٨ .
(٢٤) نورس ، علاء ، حكم المماليك في العراق ، بغداد ١٩٧٥ .
(٢٥) Birge, John K., The Bektashi Order of Dervishes, (Bristol, 1937).
(٢٦) Creasy, Edward S., History of the Ottoman Turks, (London, 1878).
(٢٧) Eliot, Sir Charles, Turkey in Europe, (London, 1908).
(٢٨) Encyclopaedia of Islam, Isteld; 4 vols. and Supple, leiden, 1913 — 38, 2nd ed, 1954.
(٢٩) Gibb, H. and Bowen, H., Islamic Society and the West, Vol. I, Pt. I, (London, 1951).
(٣٠) Hasluck, F. W., Christianity and Islam under the Sultans, 2 Vols, (Oxford, 1929).
(٣١) Kuran, Ahmad Bedvi, Osmanli Impartorlugunda Inkilop Harekttleri Ve Milli Mucadele., (Istanbul).
(٣٢) Lavallee, Theophile., Histoire de I'Empire Ottoman, (Paris, 1855).
(٣٣) Lewis, Bernard., The Emergence of Modern Turkey, (London, 1968).
(٣٤) Lybyer, Albert Howe., The Government of the Ottoman Empire in the time of Suleiman the Magnificent., (New York, 1966).
(٣٥) Parry, V. J., A History of the Ottoman Empire to 1730, (London, 1976).
(٣٦) Shaw, Stanford J., The Ottoman Empire under Sultan Selim III 1789 — 1807., (London, 1971).
(٣٧) Uzuncarsili, Ismail Hakki, Osmanli Devleti Teskilâtindan Kapukulu Ocaklari., I, (Ankara, 1943).